مصادر ابن بسّام الشنتريني
في كتابه الذخيرة

د. مصطفى إبراهيم حسين



كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، يعد أهم مصدر أدبي وتاريخي لعصر ملوك الطوائف بالأندلس بما تميز به من غزارة المادة العلمية وتحرى المصادر المهمة والمتنوعة، مع توخيه خطة سديدة شملت أقطار الأندلس، في إطار إقليمي جغرافي محكم. وينبغي ـ قبل الشروع في دراسة مصادر الذخيرة ـ أن نسجل بعض الملحوظات ذات الصلة بمنهج ابن بسام وطريقة تعامله مع مصادره، التي رجع إليها.

وأول هذه الملحوظات، تتمثل في الظروف النفسية التي أحاطت بابن بسّام، وهو يؤلف كتابه: إذ كانت «شنترين» بلده قد سقطت في أيدي الغزاة، فغادرها ـ مضطرباً موزع النفس ـ إلى «إشبيلية». يقول ابن بسام: «.. وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأحناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلون تلوّن الحرباء، لا نتباذى ـ كان ـ من «شنترين» قاصية الغرب مفلول الغرْب، مروّع السّرب، بعد أن استنفد الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد..»[1].

الملحوظة الثانية، ـ وهي مترتبة على سابقتها ـ أن طابع العجلة كان يحكم تأليف الكتاب في بعض المواضع ويحكم ـ أيضاً ـ تعامل ابن بسام مع مصادره المتنوعة. ولهذا كان يعتذر عن قلة ما تحت يده من آثار الأديب الذي يترجم له، وأنه مضطر إلى إثبات القليل، غير مترقب لفرصة العثور على المزيد من تلك الآثار[2].

يقول ـ مثلاً ـ في ترجمة ابن القصيرة (ت ٥٠٨هـ): «ولكن النوائب زاحمت ضمائري، وضربت وجوه خواطري، فما دفع إليّ عضواً تلقيته ووعيته، وما كانت فيه أدنى كلفة رجوته وأرجيته، ولا بأس من الزيادة إن انتهجت سبيل، ولله نظر جميل...»[٣].

ولابن بسام ـ في غير موضع من الذخيرة ـ أقوال تدل على المعنى الوارد في النص المتقدم، حتى أنه ـ في بعض الأحيان ـ يعتذر إلى قارئه عن عدم تحقيقه لنسبة النصوص، وسيرد مثل ذلك في موضعه من الدراسة[٤].

وثالثة الملحوظات، أن كتاب «الذخيرة» لم يكن أول تجربة لابن بسام في ميدان التأليف الأدبي، فله ـ قبل الذخيرة ـ مؤلفات أخرى، أشار إليها، واعتمدها ضمن مصادره، وأحال إليها قارئه، وقد أتاحت له هذه المؤلفات قدراً حسناً من المادة العلمية، صبّها في الذخيرة، كما جعلت منه ذلك المؤلف الراسخ الخبير في دراسة الأدب، وأهم هذه المؤلفات:

١ ـ الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل.
٢ ـ سلك الجواهر من نوادر ترسيل ابن طاهر.
٣ ـ الاعتماد على ما صحّ من أشعار المعتمد بن عبّاد.
٤ ـ الاختيار من أشعار المعتمد بن عباد[٥].
٥ ـ نخبة الاختيار من أشعار ذى الوزارتين أبي بكر بن عمار.
٦ ـ ذخيرة الذخيرة[٦].

الملحوظة الرابعة، أن كتاب الذخيرة يمثل أوضح صورة لتيار «الأندلسية» الذي شاع بين جمهرة أدباء الأندلس وعلمائها. ونعني بتيار «الأندلسية»، اعتزاز هؤلاء ببلدهم، وبعمق الانتماء إليه والولاء له، مع امتزاج هذا الاعتزاز والانتماء بإحساس غامر بالتفوق والأصالة.

ولعل من دلائل هذه «الأندلسية» الواضحة لدى ابن بسام قوله في مقدمته: «... ومازال في أفقنا هذا الأندلسي القصيّ إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين، وأئمة النوعين، قوم هم ماهم: طيب مكاسر وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر. لعبوا بأطراف الكلام المشقّق لعب الدُّجى بجفون المؤرق، وحَدّوا بفنون السحر المنمّق، حُداء الأعشى ببنات المحلّق، فصبّوا على قوالب النجوم، غرائب المنثور والمنظوم، وباهوا غُرر الضحى والأصائل، بعجائب الأشعار والرسائل. نثر لو رآه البديع، لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاّه حكمه، ونظم لو سمعه

كُثيِّر مانسب ولا مدح، أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح. إلاّ أنّ أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طـنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً..»[7].

إلى أن يقول: «... فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك وأخذت نفسي بجمع ما وجدتُ من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرةً لهذا الأفق الغريب أن تعود بدُوره أهلّة، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلّة مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه... وليت شعري، من قصر العلم على بعض الزمان، وخصّ أهل المشرق بالإحسان؟.»[8].

وسوف نرى ـ من خلال الدراسة ـ أنَّ نزعة «الأندلسية» كانت ذات أثر واضح في حث ابن بسام على تهيئة مصادره، وتوخي المظان التي توفر لمؤلفه مادة حسنة، مع تنويع هذه المظان: كتباً، ورواية، ومدونات، ورسائل يبعث بها مع رسله في كل صقع من الأصقاع، ليصله بشعر أو نثر أو خبر.

* * *

وبوسعنا ـ بعد هذا المدخل ـ أن نقسم مصادر ابن بسّام في «الذخيرة» إلى الأقسام الآتية:

- **مصادره من الكتب.**
- **مصادره من الرواية.**
- **مصادره من المكاتبات.**
- **مصادره من المرويات.**

ونحاول ـ فيما يلي ـ أن نتناول كل قسم بدراسة مفصّلة.

مصادره من الكتب:

وتتنوع هذه الكتب بين كتب في التاريخ، والأدب، والبلاغة، واللغة، والجغرافيا، كما تتنوع بين كتب مشرقية، ومغربية وأندلسية. ويقف في الصدارة من هذه الكتب كتابان: أحدهما أندلسي في التاريخ، والآخر مشرقي في الأدب. فأما الأندلسي، فهو كتاب «المتين»[9]

لابن حيان (ت ٤٦٩هـ) وهو في تاريخ الدولة الأموية بالأندلس وفترة الحجابة إلى نهاية حقبة «الفتنة البربرية»، التي أنهت حلم الأمويين والعامريين، مع شطر من عصر ملوك الطوائف.

وأما الكتاب المشرقي، فهو كتاب «يتيمة الدهر» لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ). وهو مدرسة جديدة في التأليف الأدبي غزت المشرق والمغرب، وأثرت فيهما تأثيراً بعيداً. ونحاول فيما يلي أن نتناول كتابي ابن حيان والثعالبي، ثم نتبع ذلك بدراسة لما عداهما من الكتب الأخرى مقسمين إياها إلى: مصادر مشرقية، ومصادر مغربية، ومصادر أندلسية.

فأما كتاب ابن حيان، الذي رجع ابن بسام إليه، فهو كتاب «المتين». ولم يصرّح ابن بسام باسم هذا المصدر التاريخي الأندلسي، وإنما كان يقول: «حكى أبو مروان بن حيان قال...»، أو «قال ابن حيان...» ونحو ذلك، فإذا أشار إلى الكتاب سماه «التاريخ الكبير». وهو وصف دقيق لكتاب ابن حيان، لأنه قد بلغ ستين مجلدة، حسبما قرر ابن سعيد في كتابه «المغرب»[١٠].

وقيمة كتاب «المتين» في أنه حوى معلومات تاريخية مفصّلة، تضمنت تراجم لأعلام، وسرداً لوقائع وأحداث، وتسجيلات لوثائق تاريخية مهمة، تتعلق بحقب تاريخية ذات شأن عن حياة دولة الإسلام بالأندلس، تمتد من عصر الدولة الأموية إلى شطر من عصر ملوك الطوائف.

كما سجل كتاب «المتين» أيضاً مشاهدات مؤلفة ومعايناته للأحداث والمواقف والشخصيات، وتعليقاته عليها تعليق الحاذق الخبير. فابن حيان إذن «شاهد عصره».

ولم يعتمد ابن بسام ــ في تحريره للمادة التاريخية ــ على مصدر آخر غير كتاب «المتين» بل هو قد أفرده دون غيره، حيناً بالنقل، وحيناً بالتلخيص، وهذا الجانب التاريخي الذي استمدته (الذخيرة) من (المتين) يُشكل ــ كما سنرى ــ عنصراً متميزاً في كتاب ابن بسام، لأنه لم يعتمد على مادة أدبية صمّاء، وإنما وضع هذه المادة في إطار تاريخي. فالتاريخ هنا يضيء النصوص وينطقها بالدلالات الزمنية، ويمكن القارىء من فهمها والوقوف على مناسباتها، وعوامل تشكيلها.

وكما أسدى كتاب ابن حيان للذخيرة، فإن كتاب «الذخيرة ــ برجوعه إلى كتاب «المتين»، ونقله عنه ــ قد حفظ لنا قدراً من مادة هذا الكتاب المفقود، وأتاح لنا فرصة الوقوف على قدر

من مادته ومنهجه ومصادره، ولولا كتاب الذخيرة ـ الذي حفظ قدراً كبيراً من كتاب ابن حيان ـ لظلت معرفتنا لكتاب «المتين» لاتتجاوز عنوانه، وبعض ماذكره المؤلفون عنه كابن بشكوال، والحميدي، والضبي، وغيرهم:

* * *

أما المصدر الثاني الذي اعتمده ابن بسّام، فهو ـ كما مرّ ـ كتاب «يتيمة الدهر»، لأبي منصور الثعالبي. وأهميته تكمن في أمرين:

١ ـ التأثر بالمنهج واللغة.

٢ ـ اقتباس النصوص.

فأما التأثر بمنهج التأليف، فيتمثل في محاكاة الذخيرة لليتيمة أول مؤلف عربي، اعتمد ـ بشكل نهائي ـ التقسيم الإقليمي أساساً للدراسة الأدبية. وظل هذا المنهج مقترناً باسم الثعالبي، حتى بعد أن احتذاه من تلاه من المؤلفين، أمثال: الباخرزي (ت ٤٦٧هـ) والخطيري (ت ٥٦٨هـ) والعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ).

وقد قسّم ابن بسام كتابه إلى أقسام، شملت: وسط الأندلس، وغربيها، وشرقيها، حذو الثعالبي، الذي قسم كتابه إلى أقسام شملت الشام، ومصر والمغرب، والعراق وماراء النهر.

وكما أفرد الثعالبي قسماً من اليتيمة لأدباء المغرب والأندلس، فقد حاذاه ابن بسّام، إذ جعل القسم الرابع من الذخيرة لأدباء المغرب والمشرق الطارئين على الأندلس. وقد اعترف ابن بسام بهذا الاحتذاء فقال ـ في تقديمه القسم الرابع من الذخيرة ـ : «وقد أثبتُ أيضاً آخر هذا القسم طرفاً من كلام أهل المشرق، وإن لم يطرءوا على هذا الأفق، حذو أبي منصور الثعالبي، فإنه ذكر في يتيمته نفراً من أهل الأندلس، فعارضته أو ناقضته...»[١١].

ولم يقف تأثر ابن بسّام بالثعالبي عند حدود «المنهج الإقليمي» بل حاذاه ـ أيضاً ـ في اللغة التي صاغ بها كتابه، وهي لغة تلتزم السجع وزخارف البديع. ومنذ اعتمد أبو منصور الثعالبي هذه اللغة الموشاة في «اليتيمة»، صارت موضع احتذاء عند فريق من المؤلفين المشارقة والأندلسيين.

لقد أسّس الثعالبي ـ إذن ـ مدرسة في التأليف الأدبي، لها خصائصها في المنهج واللغة،

ولها ـ أيضاً ـ تأثيرها. ولهذا يمكننا أن نعد كتاب «الذخيرة» أحد الكتب التي انتسبت إلى «مدرسة اليتيمة». وهو انتساب تدل عليه وجوه الشبه إجمالاً، وإن لم تنقضه وجوه من المباينة والمخالفة في بعض التفاصيل. فبينما يعنى صاحب «الذخيرة» بعنصر التاريخ بمزجه بالأدب، فإنا نرى عناية الثعالبي بالتاريخ تنعدم في أكثر المواضع، بحيث لا تمثل ظاهرة عامة أساسية في «يتيمة الدهر». فعنصر التاريخ ـ إذن ـ يمثل ملمحاً أساسياً في الذخيرة، على حين لا يقع هذا الموقع في اليتيمة.

وهذا شيء كان ابن بسام على وعي به، وقد أشار إليه إشارة المباهاة، فقال: «وقد وعدت ـ في صدر هذا الكتاب ـ بأن أتخلل أشعار الشعراء، ورسائل الكتاب والوزراء بما عسى أن يتعلق بأذيالها، ويساير أفياء ظلالها: من أنباء فتن ذلك الزمان البعيد ـ كان ـ طَلَّقها المفرِّق لشمل الأمر في هذه الجزيرة نَسَقُها، ونُلمع بنبذ من مشهور وقائعها.... ليجمع هذا المجموع بين الشعر والخبر.... فإنني رأيت أكثر ماذكر الثعالبي من ذلك في يتيمته محذوفاً من أخبار قائليه مبتوراً من الأسباب التي وُصلت به، وقيلت فيه، فأملّ قارىء كتابه منحاه وأحوجه إلى طلب ما أغفله من ذلك إلى سواه»[١٢].

والحق مع ابن بسّام فيما ذهب إليه، إذ كان ـ بملحوظته تلك ـ على وعي بالعلاقة بين الأدب والتاريخ، وهي لا تقل عن العلاقة بين الأدب والإقليم، وبذلك مزج ابن بسام بين الأدب والتاريخ والإقليم، وهو مالم يفعله الثعالبي.

وفي موضع آخر، يعيب ابن بسام على الثعالبي شيئاً آخر، وهو أن الثعالبي لم يبرىء كتابه من أشعار الهجاء، بينما احترز ابن بسام منها. يقول ابن بسام عن شعر الهجاء: «وهو ما صنّا هذا المجموع عنه، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه، فإن أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه وسمه، وبقي عليه إثمه»[١٣].

وقد أخطأ ابن بسّام فيما ذهب إليه، فمؤرخ الأدب حريّ به ألا يثبت شعراً دون شعر، لأنه في موقع المؤرخ الراوية، يثبت الوقائع والنصوص والحقائق، دون تزيد فيها أو تنقص. وسوف نرى أن تشبث ابن بسام بنفي أشعار الهجاء، قد أوقعه في تجاوز أشد خطراً وخطأً، فإنه حين نقل عن ابن حيان في كتابه «المتين» توخى ألا يصرّح بأسماء أشخاص بدرت منهم بعض الشوائن، ووصفهم ابن حيان بأوصاف التنقص والذمّ. وهكذا أعطى ابن بسام لنفسه حق

التصرّف في نصوص ووقائع تاريخية، فكان عمله فيما أغفله من نصوص «المتين» أشد غلطاً من عمله في إسقاط أشعار الهجاء. ومع هذا، فابن بسام الذي تحرّج من السباب، فنفاه من كتابه، لم يتحرج من إثبات أشعار الفحش والبذاء التي قيلت في غير معرض الهجاء.

وكما سبق القول لم يقف تأثر الذخيرة باليتيمة عند حد المنهج، بل تأثرت به في «اللغة»، فلغة اليتيمة لغة مصنوعة مسجوعة وهو ما تأست الذخيرة به، لا نستثنى من ذلك مقدمتها، وقد أوقعت هذه اللغة المصنوعة مؤلف الذخيرة في الإطالة والإطناب، فالمعنى الذي تنهض الجملة الوجيزة به، تتوزعه جمل طوال، ترضى من نفس ابن بسام نزوعه إلى الافتتان والتأسّي بالثعالبي، الذي عدّه صاحب الذخيرة: «أسوة المؤلفين في زمانه، وإمام المصنفين بحكم قرانه»(١٤).

قلنا: إن ابن بسّام قد تأثر باليتيمة في المنهج واللغة واقتباس النصوص. وقد تناولنا جانبي المنهج واللغة، وبقي أن نتناول جانب اقتباس النصوص. ولا يتعدى ذلك الأبيات القلائل، يسوقها في مواضع محدودة، ويقدم لمقتبساته بمثل قوله: «ومن أناشيد الثعالبي». وأكثر مايكون ذلك في مقام «الموازنات الشعرية» بين أشعار أندلسية، وأخرى مشرقية، كأن ينقل ــ مثلاً ــ بيتين لابن فرج الإلبيري المعروف بالسُّميسر، وما يناظرهما من أبيات اليتيمة دون عزو، إلى غير ذلك من الأمثلة»(١٥).

هذان الكتابان هما أهم مصادر «الذخيرة» وهما أقوى حضوراً، وأبعد أثراً من سائر المصادر الأخرى. ونحاول ــ فيما يلي ــ أن نعرض بالدراسة لسائر مصادر ابن بسام من الكتب، مقسمين إياها إلى كتب أندلسية، وكتب مغربية، وكتب مشرقية.

أولاً ــ الكتب الأندلسية :

وأهمها ثلاثة هي:

أ ــ الحدائق، لابن فرج الجيّاني.

ب ــ حديقة الارتياح في صفة الراح، لأبي عامر بن مسلمة، وزير المعتضد بن عباد.

جـ ــ البديع في فصل الربيع، لأبي الوليد بن عامر.

ونحاول فيما يلي أن نعرّف بكل من هذه المصادر، ثم نبين موقعها في «الذخيرة»، ومنهج ابن

بسّام في التعامل معها.

أ ــ الحدائق لابن فرج الجيّاني (ت ٣٦٦هـ)، أحد الشعراء المقدمين في عصر الأمويين بالأندلس.

وقد ألّف الجيّاني كتابه (الحدائق) للحكم المستنصر وهو الخليفة الأموي العالم، مترجماً فيه لطائفة من الشعراء الأندلسيين، مع مختارات لأشعارهم. وقد عارض صاحب (الحدائق) بكتابه هذا كتاب «الزُهرَة» لأبي محمد بن داود الظاهري، وضمن كتابه ترجمة لأخويه: عبدالله ابن محمد بن فرج، وسعيد بن محمد بن فرج.

وقد كان كتاب (الحدائق) في وعي ابن بسام، وهو يخطط لكتابه ويصنع منهجه، يقول ابن بسام: (ولم أعرض لشيء من أشعار الدولة المروانية، ولا المدائح العامرية، إذ كان ابن فرج الجيّاني قد رأى رأيي في النّصَفة، وذهب مذهبي من الأنفه، فأملى في محاسن أهل زمانه، كتاب «الحدائق» معارضاً لـ «كتاب الزهرة» للأصبهاني، فأضربتُ أنا عما ألّف، ولم أعرض لشيء مما صنّف، ولا تعديت أهل عصري، ممن شاهدتُه بعمري، أو لحقه بعض أهل دهرى، إذ كل مردّد ثقيل، وكل متكرر مملول). ويوقفنا النص على جملة من الحقائق نوجزها فيما يلي:

١ ــ أن كتابي «الحدائق»، و«الذخيرة» قد عارضا كتاباً مشرقياً، فالحدائق عارض الزُهرَة، والذخيرة عارض اليتيمة. وقد كانت هذه المعارضة حافزاً لحركة التأليف الأدبي بالأندلس.

٢ ــ أن كتاب «الذخيرة» جاء إكمالاً لحقبة تاريخية طرقها الجيّاني، وبنى عليها كتابه. ولهذا حاول ابن بسّام ألا يكرر ما أورده صاحب «الحدائق» وعرض له بذكر.

* * *

ب ــ حديقة الارتياح في وصف الراح: وهو للوزير أبي عامر بن مسلمة، وقد عاش مصانعاً للمعتضد بن عباد. فجمع له هذا الكتاب، الذي قصره على ماورد في الخمر شعراً ونثراً، على مايبدو من العنوان، وبعض ما اختاره من صاحب «الذخيرة». وبعض هذه «الخمريات» هي من نظم ابن مسلمة، وبعضها من نظم غيره، وتدل بعض مقتبسات ابن بسام من «حديقة الارتياح» على أن ابن مسلمة كان يطارح شعراء آخرين، ويطارحه الشعراء. فمن هؤلاء ابن الأبّار، وأبو علي إدريس بن اليماني.

ويدلنا حديث ابن بسام عن كتاب «حديقة الارتياح» على أن نسخة من هذا الكتاب، قد وقعت له، وأنها كانت بخط المؤلف، الذي وصفه ابن بسام بكثرة الرواية، وجودة العناية.

وقد أكثر صاحب الذخيرة النقل عن كتاب «الحديقة» حتى أنه نقل عنه مقطوعات أبيات لجماعة من الأدباء المعاصرين للمعتضد بن عبّاد، وعقد لهذه الاختيارات فصلاً كاملاً، اعتمد فيه على كتاب «الحديقة» وحده، لأنه لم (يجد لهم أشعاراً تفسح في طريق الاختيار إلا ما أثبت لهم الوزير أبو عامر بن مسلمة في عرض كتابه المترجم بـ «الحديقة»)، ومن هؤلاء الأدباء: الوزير أبو الأصبغ بن عبدالعزيز، وابن الصباغ، وأبو بكر بن نصر الإشبيلي، وغيرهم.. فالكتاب إذن هو من قبيل كتب الاختيارات الأدبية، أكثرها في الخبر، وبعضها في وصف الطبيعة. وتبدو أهمية هذا الكتاب فيما يلي:

١ ـ أنه أنموذج للون من ألوان التأليف الأدبي الذي عنى الأندلسيون به، وهو «أدب الخمر والغزل والطبيعة». وأنه كان المصدر الأوحد لأشعار شعراء المعتضد بن عباد.

٢ ـ تدل بعض نقول ابن بسام عن كتاب «حديقة الارتياح» على ولاء ابن مسلمة للأموية، وولاء صديقه ابن الأبّار أيضاً الذي كان يطارحه الأشعار في رسائل جرت بينهما. أما عدد الأبيات الشعرية التي نقلتها «الذخيرة» عن الحديقة فهو مائة وثمانية وخمسون بيتاً.



جـ ـ البديع في فصل الربيع: وهو للوزير الكاتب أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر الحميري، الملقب بحبيب العامري الإشبيلي (ت: ٤٤٠هـ).

وقد وصفه ابن بسام بقوله: «كان سديد سهم المقال، بعيد شأو الرويّة والارتجال. أما كتاب البديع فوصفه صاحب الذخيرة بقوله: (وله كتاب سماه «البديع في فصل الربيع» جمع فيه أشعار أهل الأندلس خاصة، أعرب فيه عن أدب غزير، وحظ من الحفظ موفور.

وقد نقل ابن بسام عن كتاب «البديع»[١٨]، فأكثر النقل، والكتاب كما تدل مادته ـ وهو بين أيدينا منشور مطبوع ـ قد ذهب في وصف محاسن الربيع، من زهر وورد، وهو يدير بين أصناف الزهور والورود مناظراتٍ شائقة، تقوم ـ أساساً ـ على النثر، وتتخللها شواهد من الشعر.

وهكذا نجد أن تلك الكتب الأندلسية الثلاثة، التي اتخذها ابن بسام مصادر ينهل منها. هي كتب في وصف الطبيعة جمعت بين الشعر والنثر، تعطى صورة لقارئها عن اهتمام أهل الأندلس بأدب الطبيعة الحية.



ثانياً: الكتب المغربية:

١ ــ العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق القيرواني (ت: ٤٦٣هـ) وهو أجمع كتب التراث العربي في نقد الشعر ودرسه. ومن أهم المصادر التي استعان ابن بسام بها في مجال «البحث البلاغي»، إذ كان ابن بسام معنياً بالبلاغة، وقد أطلق عليها مصطلح البديع.

ولسوف نرى أن ابن بسام قد وجد في عمدة ابن رشيق طلبته، ومن ثم كان ينقل عنه، دون أن يصرح في أكثر مواضع نقله، أو حتى في مقدمة الذخيرة، التي قال فيها: «... وعدتُ أن ألم في هذا المجموع بلمع من ذكر البديع، وأن أسُدّ جانباً من أسبابه، وأشرح جملاً من أسمائه وألقابه، وإذا ظفرت بمعنى حسن، أو وقعت على لفظ مستحسن، ذكرت من سبق إليه، وأشرتُ إلى من نقص عنه، أو زاد عليه...»[١٩].

وواضح من النص المتقدم أن صاحب «الذخيرة». وقد وعد «بذكر لمع من البديع... الخ»، لم يشر هنا بأدنى إشارة إلى مصدره الأساسي، الذي سوف يتكىء عليه لاستمداد مادته البلاغية التي وعد بها، كما لم يشر ــ أثناء نقله عن «العمدة» في مواضع من الذخيرة ــ سوى مرة واحدة، عند ترجمته للشاعر الأندلسي «أبو إسحاق إبراهيم بن معلى»، وهو يتناول أنواعاً من البديع، هي: الإشارة، والتلويح، والإيماء، والرمز، واللغز. ومن هذه المواضع على سبيل المثال:

أ ــ حديثه عن «البديهة والارتجال»، إذ يخرج به على مسار الكلام ــ وكأنه بحث بلاغي مستقل، ناقلاً إياه ــ في جملته ــ عن كتاب «العمدة»، الذي عقد له فصلاً كاملاً وقفه عليه. وحتى عندما يتعامل ابن بسام مع مصادر بلاغية سوى العمدة، فإن تعامله مع تلك المصادر ونقله عنها كان من خلال «العمدة» دون أن يصرح بذلك[٢٠].

ومن هذا مثلاً قول ابن بسام عن «الالتفات»: (وأحسن ابن المعتز في العبارة عن الالتفات، حيث قال: هو انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة، وعن المخاطبة إلى الإخبار وقوله تعالى. . .)[21].

والدليل على أن كلام ابن المعتز منقول عن (العمدة) لا عن كتاب «البديع» لابن المعتز عبارة (وأحسن ابن المعتز في العبارة عن الالفتات)، فهي بتمامها عبارة ابن رشيق القيرواني، علق بها على تعريف ابن المعتز بمصطلح «الالتفات»[22].

فإذا ما قابلنا سائر كلام ابن بسام بكلام ابن رشيق وجدنا تطابقاً كاملاً. فإذا قال ابن رشيق: (وأنشد ابن المعتز في هذا النوع لبشار)، تابعه ابن بسّام في الشاهد والعبارة.

وإذا قال ابن رشيق: (ومن مليح ماسمعته قول نصيب. . .)، نقل ابن بسام العبارة ذاتها، مع تحوير يسير، فقال (وما أملح قول نصيب). فإذا عقب ابن رشيق على شعر نصيب مفسراً ومحللاً، أخذ ابن بسام تعقيب ابن رشيق بتمامه لم يخرم حرفاً. فإذا انتهى باب «الالتفات» عند ابن رشيق أنهى ابن بسام حديثه بقوله: «واستقصاء ذكر هذا الباب مما يضخم حجم الكتاب. وكأن بين يدي ابن بسام مصادر جمّة، ومادة وفيرة غزيرة[23].

وهكذا لو استقصينا موضوع «الاستطراد» الذي أورده ابن بسام ــ حشواً واستطراداً ــ، فإننا نجد كلامه على جملته منقولاً عن ابن رشيق في «العمدة»، وإن حاول ابن بسام هذه المرة أن يموه في نقله وأخذه، فيسوق شواهده من الشعر الأندلسي، أو يضع لفظة مكان لفظة. . وكذلك لو استقصينا سائر نصوص ابن بسام عما أسماه «البديع»، فسوف نضع أيدينا على المزيد من نقوله عن العمدة، يسوقها دون عزو، أو ينسبها إلى مصادرها الأصلية، التي لم يرجع إليها، وإنما رجع إلى «العمدة». فاستلّ نصوصها منه استلالاً.

* * *

٢ ــ أنموذج الزمان في شعراء القيروان: وهو أيضاً لابن رشيق القيرواني، ويضم تراجم لأكثر من مائة شاعرٍ من شعراء مدينة القيروان، عاصمة دولة العبيديين، فالصنهاجيين، وموطن ابن رشيق. وإذا كان العمدة بين ظهرانينا في طبعات مختلفة، فإن «أنموذج الزمان» مفقود. وإن حفظت لنا المصادر الناقلة عنه قدراً حسناً منه، فقد نقل عنه ابن فضل الله

العمري في «مسالك الأبصار» قطعة كبيرة، بلغ عدد شعرائها ستة وسبعين شاعراً كما نقل عنه ياقوت الحموى في كتابيه «معجم الأدباء» و«معجم البلدان»، كذلك نقل عنه ابن خلكان في وفياته، والصفدى في الوافى، وغيرهم:

وقد نقل ابن بسام عن «الأنموذج» ترجمتين لشاعرين قيروانيين، أولهما ابن قاضي ميلة، والثاني أبو إسحاق الحصري، صاحب «زهر الآداب، وثمرة الألباب». وتأتي ترجمته لهذين الأديبين المغربيين وفاءً منه بمحاذاة أبى منصور الثعالبي في اليتيمة. فإن أبا منصور الثعالبي ــ الذي أفرد أكثر كتابه لأدباء المشرق ــ، قد خص أهل الأندلس والمغرب بنصيب من كتابه، فأراد صاحب الذخيرة ــ إذن ــ أن يصنع صنيع الثعالبي، فيخص غير الأندلسيين بمكان من كتابه. يقول ابن بسّام في مقدمة كتابه: «والقسم الرابع أفردته لمن طرأ على هذه الجزيرة في المدة المؤرخة من أديب شاعر، وآوى إلى ظلها من كاتب ماهر، واتسع فيه مجاله، وحفظت في ملوكها أقواله، ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهوري أهل تلك الآفاق، ممن نجم في عصرنا بإفريقيا والشام والعراق. . .»[٢٤].

ويقول ابن بسّام ــ مؤكداً احتذاءه ــ في الجزء الرابع: «. . ثم عرضتُ بعد معارضته أبا منصور الثعالبي، بذكر من هنالك من شاعر مشهور، واجتلاب ما يتعلق بذلك من خبر مأثور، فأشرت إلى ذكر من كان في هذا الوقت ممن طال طلقه، وأشرق أفقُه»[٢٥].

هذا هو موقع كتاب «الأنموذج» من سائر مصادر الذخيرة، أما أهمية الذخيرة فيما نقلته لنا من الأنموذج، فإنها لا تتمثل في نقلها ترجمة شاعرين، بل إن هذه الأهمية تتمثل في تحديد الذخيرة لعدد من ترجم الأنموذج» لهم من الشعراء، والتحديد الزمني ــ إجمالاً ــ لعصرهم وأعمارهم، وذلك في قول ابن بسام: «إن شعراء الأنموذج مائة شاعر وشاعرة، وأكثرهم كان في المائة الخامسة من الهجرة، وتقاربت موالدهم، وتشابهت مصادرهم ومواردهم».

فهذه العبارة ــ على وجازتها ــ جامعة، كما أن ابن بسام هو المصدر الوحيد الذي حدّد لنا عدد شعراء كتاب «الأنموذج». بين سائر الكتب الناقلة عن هذا الكتاب المفقود.

وعلى هذا فليس موقع الأنموذج ــ من الذخيرة ــ أنه مجرد مصدر أفاد ابن بسام منه، بل إن الذخيرة بدوره قد غدا مصدراً للأنموذج، بنقل مادته والتعريف الشامل الوجيز بهذه المادة.

٣ ــ زهر الآداب ــ وثمرة الألباب، لأبي إسحاق الحضري (ت: ٤٥٣هـ): وقد ترجم له صاحب الذخيرة في الجزء الرابع، ضمن من ترجم لهم من غير أهل الأندلس، ونقل عن كتابه «زهر الآداب» مقطوعات من نثره، كما نقل من أشعاره وأخباره من كتاب «الأنموذج» الذي قدّمنا الحديث عنه.

ولم ينقل ابن بسام عن «زهر الآداب» إلا في موضع الترجمة لأبي إسحاق الحصري مؤلفه. كما يصف الكتاب بأنه معارضة للجاحظ، فيقول: «عارض أبا بحر الجاحظ بكتابه الذي وسمه بزهر الآداب، وثمر الألباب، فلعمري ما قصرُ مداه، ولا قصّرت خطاه، ولولا أنه شغل أكثر أجزائه وأنحائه، ومرج يجبو حمى أرضه وسمائه، بكلام أهل العصر دون كلام العرب، لكان كتاب الأدب، لا ينازعه ذلك إلا من ضاق عنه الأمد، وأعمى بصيرته الحسد»[٢٦].

وتوقفنا عبارة ابن بسام عن كتاب «زهر الآداب» على جملة من الحقائق نوجزها فيما يلي:

أ ــ أن كتاب الحصْري معارضة للجاحظ. ومعلوم أنه ــ على وجه التحديد ــ معارضة لكتاب «البيان والتبيين»، ومعنى هذا أن كتاب «البيان والتبيين» قد غدا مدرسة لها تأثيرها خارج حدود المشرق، يتأسى بها المؤلفون.

ب ــ أن ابن بسام ــ وإن أثنى على الكتاب ــ فإنه قد عاب عليه غلبة كلام أهل العصر، دون القدماء من العرب. وهذا المأخذ غير صحيح، لأن الحصري لو قصر كتابه على آثار القدماء كما فعل الجاحظ، أو جعل أكثره للقدماء لكان عليه أن ينقل عن سابقيه، وأن يقف عند عصور سبقته متجاهلاً حقوق عصره ومعاصريه من أدباء المشرق والمغرب. وإذا كان ابن بسام قد خص أكثر كتابه لأبناء بلده وعصره، دون القدماء من أدباء العرب، فلماذا يطالب سواه بما لم يفعله هو؟!

* * *

ثالثاً: الكتب المشرقية:

وهي قريبة من ثلاثين كتاباً. إلا أن نصيبها من الأهمية أقل ــ بطبيعة الحال ــ من مثيلاتها

الأندلسية، هذا حين نستثنى كتاب «يتيمة الدهر» للثعالبي، باعتباره الأنموذج الذي احتذاه ابن بسام، والمدرسة التي انتسبت الذخيرة إليها.

وواضح قلة أهمية المصادر المشرقية في كتاب «الذخيرة»، ذلك لأنه ـ أساساً ـ كتاب في أدب الأندلس، فمن البديهي ـ إذن ـ أن تقل استعانة المؤلف بالكتب المشرقية. وبوسعنا أن نصنف هذه المصادر حسب موضوعاتها على النحو الآتي:

أ ـ مصادر أدبية، وأهمها كتابا «البيان والتبيين»، و«البخلاء» لأبي عثمان الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ).

ب ـ مصادر نحوية ولغوية، وأهمها كتابان، وهما: «الكتاب» لسيبويه، و«إصلاح المنطق» لابن السكيت

جـ ـ مصادر عامة، ونجد منها في الذخيرة كتابين، وهما: كتاب اليعقوبي في تاريخ الدولة العباسية، وكتاب سنن الترمذي.

ومع كثرة هذه المصادر، فإن أغلب المنقول عنها لا يعدو أن يكون نتفاً قليلة، في مواضع لا تمثل الهياكل الأساسية في الكتاب.

مصادره من الرواية:

ونقصد هنا ما سمعه مشافهة من الأفواه، أو ما حفظه واستظهره من خبر أو شعر أو غيرهما من الآثار. على أن استقصاء مواضع الرواية في «الذخيرة» يوقف الدارس على أنماط مختلفة، منها على سبيل المثال[٢٧]:

أ ـ في مواضع ترجمته للوزير الأديب أبي مروان بن الشماخ يقول: «وأبو مروان هذا أحد من شافهته وذاكرته، وأنشدني شعره». ولا يفتأ ابن بسام بين الحين والحين يؤكد روايته المباشرة عن ابن الشماخ الشاعر، فيكرر ـ في سياق ترجمته ـ مثل قوله: «من ذلك ما أنشد منه لنفسه من جملة أبيات اندرجت له في رسالة موشحة عارض بها بديع الزمان في طريقته. . .». وقوله: «وأنشدني أيضاً لنفسه»[٢٨]. أو قوله: «ومن شعر ابن الشماخ ما أنشدنيه. . .».

ب ـ في موضع ترجمتع لابن خفاجة الأندلسي، وقد بلغت ترجمته وآثاره نحو الثلث من الجزء الثاني من المجلد الثالث. ولا نتحقق من أن أخبار ابن خفاجة وأشعاره قد وقعت له بطريق الرواية إلا مع نهاية الترجمة حين يصرح بالرواية مرتين وبلفظ الرواية الصريح وهو «أخبرني».

ويبدو أن ابن بسام قد لقى ابن خفاجة فروى عنه من فمه مباشرة، ثم افترقا، فكان الرواة يحملون إليه أشعاره بدليل قوله: «وهو اليوم بمطلعه من ذلك الأفق، يبلغني من شعره مايبطل السحر، ويعطل الزهر، وقد أثبت بعض ما وقع إليّ من كلامه...»[٢٩].

جـ ـ في موضع ترجمته لأبي جعفر أحمد بن الدودين البلنسي، يقول ابن بسام: «هو أحد من لقيته وشافهته، وأملى عليّ...»[٣٠]. وفي موضع آخر يقول: «وأخبرني برسالته التي رد فيها على أبي عامر بن غرسية».

ويفيدنا ـ في سند ابن الدودين البلنسي ـ حرص ابن بسام على ذكر تاريخ الرواية، ويعني ذلك أن ابن بسام إلى عام سبعة وسبعين وأربعمائة ـ على الأقل ـ كان مايزال يسعى إلى جمع مادة كتاب «الذخيرة»، وأنه كان يضطر إلى الارتحال سعياً وراء الأدباء للأخذ من أفواههم.

كما تبدو أهمية الرواية عن ابن الدودين في شيء آخر، وهو رواية «رسالة ابن غرسيه» النصراني الشعوبي، ورسالته تعد أثراً أدبياً هاماً في «أدب الشعوبية في الأندلس». وقد أثارت الرسالة ثائرة أدباء الأندلس المسلمين ضد صاحبها، فتصدوا للرد عليه ودحض مفترياته في ذم العرب والمسلمين[٣١].

وقد روى ابن بسام نص رسالة ابن غرسيه مع نصوص من الرسائل الأندلسية في الرد عليها، فوضع أمام الدارس مادة خصبة في كشف أبعاد التيار الشعوبي وتأثيره على الحركة الأدبية بالأندلس.

د ـ وربما كان «أبو بكر الخولاني» أهم راوية أخذ عنه صاحب الذخيرة، وزخر كتابه بمروياته. إذ يتكرر الأخذ عنه في غير موضع من كتاب الذخيرة، وتبدو من بعض الأسانيد صداقة وثيقة ومداخلة بين ابن بسّام وأبي بكر المنجم[٣٢].

وتفيدنا أبيات رواها للمعتمد بن عباد، أن أبا بكر الخولاني كان من ندماء المعتمد ومنجميه، ومن هنا تأتي أهمية مرويات أبي بكر الخولاني. كذلك كان أبو بكر الخولاني يتلقى ـ في مدح المعتمد بن عباد ـ قصائد من شعراء في بقاع مختلفة، فيرفعها أبو بكر إلى المعتمد[٣٣].

ولا شك أن رجلاً هذا قدره، قد رفد صاحب الذخيرة بما أفاده، وبخاصة ما يتصل بأخبار المعتمد وأشعاره، وأشعار الشعراء فيه.

وليس من وكدنا في هذ الدراسة أن نستقصي كل من روى عنهم ابن بسام، بل اكتفينا بالشاهد دون الحصر والاستقصاء.

وكما روى ابن بسام عن أشخاص حددهم بأسمائهم، فقد روى عن مجاهيل، لم يذكر للقارىء أسماءهم، وترد عباراته على نحو قوله:

ماحكاه الرواة[٣٤] ـ أخبرني من لا أرد خبره[٣٥] ـ حدثني من أثق بخبره ـ أخبرني غير واحد من أدباء عصرنا[٣٦] ـ حدثني من شهد... أو من سمع[٣٧].



وهناك ـ عدا ما ذكرنا ـ صورة أخرى من صور الرواية نجدها في كتاب «الذخيرة»، وهي «الحفظ»، ومن الأمثلة عليها:

أ ـ «.... لم آخذ هذا الخبر عن سنده، ولا استعنت فيه بكتاب لأحد، إنما اختلسته من ذُكرة أجريها، أو أحدوثة إنما لذتي بين أن أكتبها وأمليها....».

ب ـ «وأنا أنشد في هذا الموضع بعض ما تعلق من ذلك بحفظي»[٣٨].

جـ ـ في ترجمته للأديب الأندلسي ابن عبد الجبار المعروف بالمتنبي، يقول: «وقد مت جملة مما وقع في شرك حفظي على سائر شعره»[٣٩].

وتفيدنا العبارة الأخيرة، باعتداده بما يحفظ من أشعار الشاعر، وتقديمه المحفوظ على سواه مما عسى أن يكون مدوناً في دفتر أو كتاب.

وأمثال هذه العبارات الدالة على «الحفظ» متناثرة في تضاعيف الذخيرة[٤٠].

إلا أنه في بعض الأحيان يعترف بعوادي النسيان[٤١]، وبقاء البعض دون الكل في ذاكرته، ولكن ما مدى حرص صاحب الذخيرة على توثيق مروياته، والنأي بها عن الشبهات؟. أول ما يطالعنا ــ جواباً عن هذا التساؤل ــ يتمثل في حرص ابن بسام على إسناد مروياته إلى رواتها. فإن كان هؤلاء الرواة مجهولين، حرص على وصفهم بما يعطي الثقة بهم كقوله «من أثق بخبره أو غير واحد أو من لا أرد خبره». فإن علت الشبهة ما يرويه، سارع إلى تبرئة عهدته، وإثارة الشك حول الأثر، كقوله بشأن خبر عن ولادة بنت المستكفي: «هكذا وجدت هذا الخبر، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقليه، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه»[٤٢].

* * *

مصادره من المكاتبات:

والمراد بها ــ هنا ــ ماكان يحصله من المرويات عن طريق الرسائل. وكان ابن بسام يراسل الأدباء والرواة في أصقاع شتى من الأندلس، وأحياناً كان يبعث إليهم برسله، ويدبج رسائله بأبلغ عبارة، ليحرك همم الرواة إلى معاونته، في سبيل إنجاز عمله العلمي، الذي كان المهتمون يتسامعون بخبره في أصقاع شتى من الأندلس. ومن أمثلة هذه الرسائل رسالته إلى أبي حاتم الحارى يستحثه فيها على إرسال شيء من نتاجه، فأبطأ أبو حاتم، فعاود ابن بسام مكاتبته بلفظ أحرجه، وحرّكه إلى القدوم بنفسه على ابن بسام «ونثر مبيضاته بين يديّ يقيمه الخجل ويقعده، وقد صبغه كما صبغ العسجد»[٤٣].

وإذا كان صنيع أبي حاتم هو من قبيل «المدونات» لا المكاتبة، لأنه قدم بنفسه فنثر مبيضاته، فإننا نجد في الذخيرة بعض الأمثلة من المكاتبات، منها ما ذكره في موضع ترجمته لأبي عبدالله محمد بن أبي الخصال (ت: ٥٤٠هـ). يقول ابن بسام: «كنت قد انفردت لتحرير هذه النسخة من هذا المجموع في شهور سنة ثلاثٍ وخمسمائة، فلما انتهيت إلى نقل ماكان وقع إليّ من ترسيل كُتّاب هذا الجانب الشرقي من الأندلس، لم أقع لهذا الرجل على كلام في نثر ولا نظام. فكاتبت بعض الإخوان في ذلك، ونشّطني أيضاً على مخاطبته هنالك، فوردت الرقعتان وهو مجتاز على حضرة إشبيلية في جملة أهل العسكر، فراجعه في كتاب طويل...»[٤٤].

وقد أثبت لنا ابن بسام نص هذه الرسالة التي بعث بها ابن أبي الخصال، كما أثبت لنا جملة

من أشعار ذلك الأديب، التي بعث بها مع رسالته.

ويمكن ـ استخلاصاً من رسالة ابن أبي الخصال ـ أن نقف على محاولات ابن بسام المخلصة في الحصول على مادة لكتابه، وقد كان يبعث برسائله تلك مع رسله، كما يشفع رسائله برسائل الآخرين من الأصدقاء.

كما يوقفنا نص الرسالة على أن مشروع ابن بسام كان ـ كما أسلفنا ـ متعالماً مشهوراً بين جمهرة من الأدباء، برغم تباعد المسافات، بل إن اسم الكتاب ـ وهو الذخيرة ـ كان معلوماً مشهوراً أيضاً، بل يبدو من نص الرسالة، أن ابن بسام كان يعرض على من كان يكاتبهم من الأدباء مسوّدات من أجزاء كتاب الذخيرة، ولا تفسير لنا لمثل هذا الصنيع، إلا بأن ابن بسام يريد إشعار من يكاتبهم بجديته في مشروعه العلمي، حفزاً لهم على معاونته.

ولكننا نلاحظ ـ من الاستقصاء لكتاب الذخيرة ـ أن مراسلات ابن بسام قليلة، وأن «المكاتبة» لا تشكل بين سائر المصادر مصدراً خطير الشأن، وتعليل ذلك ليس بالأمر المتعذر، إذا قدّرنا تباعد المسافات وسوء الأحوال على عهد ملوك الطوائف، وتكاسل الأدباء عن الجواب، أو مماطلاتهم كما وضح لنا.

مصادره من المدونات:

ونقصد بالمدونات هنا، ماكان يقع لابن بسام من دفاتر ومبيضات وأوراق، سواء كانت هذه المدونات من عمله هو، يستعين بها في جمع مادته العلمية، أو كانت ـ في الأصل ـ ملكاً لآخرين، ثم آلت إليه إعارةً أو تملكاً، أو إهداء. وسوف نرى أن لهذه المدونات ـ في الذخيرة ـ أسماء شتى، مثل: المبيضات، والتعاليق، والبطائق... الخ ونسوق هنا أمثلة منها:

أ ـ «... وجدتها في بعض تعاليق الفقيه أبي محمد علي بن حزم الشافعي بخطه عن محمد بن أبي الحسن المذحجي، المعروف بابن الكتاني المتطبب»[٤٥].

ب ـ في موضع ترجمته لبني الباجي، ورواية آثارهم الأدبية يقول: «ونقلت ما أثبتّ في هذا المجموع من رسائل بني الباجي من قراطيس تعاليق، وبطائق وقعت إليّ تفاريق، منسوبةً لهم في الجملة. وربما اختلطت رسائل الابن والأب لهذا السبب، وهو الذي أصف وأشرح مما لا

يضرّ ولا يقدح، لا سيما في حكاية لا يخلّ بها نسبتها إلى من لم يحكها، وفي نشر نسيجه لا يفض من بهجتها إضافتها إلى من لم يحكها، وإنما هي مُلح منثور أو منظوم، وليست بحقائق علوم، فنتكلف في صحة الأسانيد، والفرق بين سُعيد، وسَعيد، والفصل ما بين عُبيد وعَبيد. . .»[٤٦].

ويحتاج النص الثاني إلى وقفة: فإن ابن بسام قد وقعت له رسائل بني الباجي (وهم من العائلات الأدباء بالأندلس) على هيئة تعاليق وبطائق مفرقة، غير ثابت فيها نسبة الرسالة إلى ابن أو أب أو أخ، إذ كل الثابت في نسبة هذه الرسائل ــ على جملتها ــ أنها لبني الباجي. ومن هنا كانت العبارة الأخيرة الواردة في النص، وهي قوله: «وإنما هي مُلح منثور أو منظوم، وليست بحقائق علوم، فنتكلف في صحة الأسانيد. . .».

فالعبارة توهم قارئها بأن صاحب الذخيرة متهاون في تحقيق ما ينقله من مدوناته. وليس الأمر على تلك الشاكلة. لأن ابن بسام، وقد قال ماقال، إنما افتقد وسائل تحقيق نسبة مالهذا أو ذاك من رسائل آل الباجي، فليس أمامه ــ إذن ــ إلا روايتها على الجملة دون نسبة دقيقة. ولو كان أمام ابن بسام من وسيلة للتدقيق والتحقيق ما سلك هذا المسلك.

* * *

فإذا تجاوزنا هذين النصين، صادفتنا نصوص أخرى تؤكد أهمية «المدونات» بين سائر مصادر ابن بسام، كقوله في ترجمة ابن السِّيد البطلْيوسي: «ووجدتُ له في بعض التعاليق هذه القصيدة منسوبةً إليه بخط عبد الجليل بن وهبون المرسي. . .» وعدد أبيات القصيدة اثنتان وأربعون.

* * *

وقد كان لابن بسام وقفات أمام النص الذي ينقله عن المدونات، إذا ما وجد في ثناياه شبهة، ومن ذلك خبر أبيات شعرية لابن مهران السرقسطي[٤٧]، فهو يذكر لنا رواية المدونات، ورواية أخرى تلقاها بالسماع. كما يحرص ــ في معرض ذكر الأبيات والخبر ــ على أن يذكر الأسانيد المذكورة في المدونة.

ومع أن الكثير من مدونات ابن بسام كانت تتمتع بقدر من الوثاقة، تكسبها قيمة تاريخية بين سائر الذخيرة، فإن ذلك لم يمنع من أن يشكو ابن بسام من رداءة خطوط النساخين وكثرة تصحيفهم وتحريفهم.

يقول في مقدمة «الذخيرة»: «... فإنما جمعته بين صعب قد ذلّ... من تفاريق كالقرون الخالية، وتعاليق كالأطلال البالية، بخط جهال كخطوط الرّاح، أو مدارج النمل بين مهاب الرياح، ضبطهم تصحيف، ووضعهم تبديل وتحريف... ففتحت أنا أقفالها، وفضضت قيودها وأغلالها...»(٤٨).



وبعد، فإن ما أوردنا من نصوص تفيد «الأخذ من المدونات» هو أمثلة وشواهد، وإلا فثمة نصوص أخرى لم يعرض لها بذكر. وكلها في جملتها تجعل «المدونات» ذات قيمة خاصة بين سائر مصادر الذخيرة.

وآخر ما ننتهي إليه أن مصادر ابن بسام في الذخيرة كانت متنوعة، وكلها تشير إلى إخلاص ابن بسام لعمله العلمي الكبير.



• هوامش البحث •

(١) الذخيرة ق ١ ح ١ ص ١٩.
(٢) انظر: الذخيرة. ق ١ حـ ٢ ص ٧٩١، وقد ترجم ابن بسام لابن بليطة في الذخيرة ق ١ حـ ٢ ص ٢٣٩.
(٣) الذخيرة. ق ١ جـ ٢ ص ٢٣٩.
(٤) الذخيرة. ق ٢ جـ ١ ص ٤٦٧، ق ١ جـ ٢ ص ٧٩١.
(٥) ذكر ابن بسام هذه المؤلفات الأربعة في الذخيرة. ق ٢ جـ ٢ ص ٤٧٧.
(٦) ذكره في الذخيرة ق ٢ جـ ٢ ص ٨٣٥.
(٧) الذخيرة. ق ١ جـ ١ ص ١١، ١٢.
(٨) نفسه.
(٩) لابن حيان - عدا «المتين» - كتاب آخر بعنوان «المقتبس»، والكتابان مفقودان. وقد نشر الدكتور محمود علي مكي قطعة من «المقتبس» (القاهرة ١٩٧١) وقوم لها بمقدمة ضافية، كما نشر قطعة من المقتبس أيضاً الدكتور عبد الرحمن الحجي (بيروت ١٩٦٥م). وانظر في ترجمة ابن حيان (ت ٤٦٩هـ) الصلة ص ١٩٥ وبغية الملتمس ص ١٨٨، كما ترجم له أيضاً الدكتور عبدالرحمن في مقدمة القطعة من المقتبس.

(١٠) وانظر لابن سعيد «المغرب في حلى المغرب» ٢١٢/١ بتحقيق الدكتور شوقي ضيف.
(١١) الذخيرة ق ٤ جـ ١ ص ٨.
(١٢) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٤.
(١٣) نفسه ق ٤ جـ ٢ ص ٥٦٠.
(١٤) نفسه ق ٤ جـ ٢ ص ٥٦٠.
(١٥) نفسه ق ١ جـ ٢ ص ٨٨٥، ٨٩٨.
نفسه ق ٢ جـ ٢ ص ١٣.
(١٦) نفسه ق ١ جـ ١ ص ١٣.
(١٧) سزكين (ط جامعة الإمام بالرياض بالسعودية) ص ٣٣.
(١٨) الذخيرة ق ٢ جـ ١ ص ١٢٥، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢١٤ ق ٢ جـ ٢ ص ٨١٣ ــ ٨٢١.
(١٩) الذخيرة ق ١ جـ ٢ ص ١٨ ــ ١٩.
(٢٠) وانظر ــ الذخيرة ق ٤ جـ ١ ص ٣٦ ـ ٣٩، والعمدة ١٨٩/١ ـ ١٩٦.
(٢١) الذخيرة ــ ق ٢ جـ ١ ص ٢٢٤.
(٢٢) العمدة ٤٧/٢ م.
(٢٣) الذخيرة ق ٢ جـ ٢ ص ٩٠١، والعمدة ٣٩/٢ ـ ٤٢.
(٢٤) نفسة ق ١ جـ ١ ص ٢٩، ٣٠.
(٢٥) نفسة ق ٤ جـ ٢ ص ٥٢٩.
(٢٦) نفسة ق ٤ جـ ٣ ص ٥٨٤.
(٢٧) نفسة ق ١ جـ ٢ ص ٨٢٧.
(٢٨) نفسة ق ١ جـ ٢ ص ٨٤١، ٨٤٤.
(٢٩) نفسة ق ٣ جـ ٢ ص ٦٤٢.
(٣٠) نفسة ق ٣ جـ ٢ ص ٧٠٣.
(٣١) وانظر ــ المغرب ٤٠٦/٢.
(٣٢) وانظر أمثلة لهذه العلاقة في الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٤٤، ٤٢٩، ٣٨٥، ق ٤ جـ ١ ص ٣٦٩، ق ٤ جـ ٢ ص ٣٦٢، ق ٣ جـ ٢ ص ١٠٣، ٧٠٤.
(٣٣) وانظر ــ الذخيرة ق ٢ جـ ١ ص ٢٤٤.
وأما عن رسالة ابن غرسيه، فقد نشرها عبد السلام هارون مع نصوص الرسائل التي تصدى أصحابها للرد على ابن غرسية، وذلك في سلسلة «نوادر المخطوطات».
(٣٤) الذخيرة ــ ق ١ جـ ١ ص ٣٨، ق ٢ جـ ١ ص ٢٧٠.
(٣٥) نفسه ق ١ جـ ٢ ص ٨٤٨، ق ٢ جـ ٢ ص ٤٩٩.
(٣٦) نفسه ق ٢ جـ ٢ ص ٨٠٦.
(٣٧) نفسه ق ١ جـ ١ ص ٥٠، ٩٩.
(٣٨) نفسه ق ١ جـ ٢ ص ٧٩٤.
(٣٩) نفسه ق ١ جـ ٢ ص ١٦.
(٤٠) نفسه ق ٣ جـ ١ ص ٤٥٨.
(٤١) نفسه ق ٢ جـ ١ ص ٤٥٨.
(٤٢) نفسه ق ١ جـ ٢ ص ٤٣٠.
(٤٣) نفسه ق ٣ جـ ٢ ص ٦٥٤، ٦٥٥.

(٤٤) نفسه ق ٣ جـ٢ ص ٧٨٧.
(٤٥) نفسه ق ٣ جـ١ ص ٣١٨.
. وانظر: ق ٤ جـ١ ص ١٢٥.
(٤٦) الذخيرة ق ٣ جـ٢ ص ٨٥٨.
(٤٧) وانظر ترجمته في المغرب ٢/٤٤٢.
(٤٨) الذخيرة ـ ق ١ جـ١ ص ١٥، ١٦

• • •

• المصادر والمراجع •

١ ــ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ــ دار الثقافة ــ بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٢ ــ فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، ترجمة الدكتور محمود فهمي حجازي ــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٣ ــ إسماعيل باشا أمين. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ــ دار العلوم الحديثة ــ بيروت (د ت).
٤ ــ ابن رشيق القيرواني. العمدة في صناعة الشعر ونقده. بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. بيروت (عن نسخة القاهرة) (د ت).
٥ ــ ابن سعيد الأندلسي: «المغرب في حلى المغرب» بتحقيق الدكتور شوقي حنيف ــ دار المعارف بالقاهرة (عام ١٩٦٣م).
٦ ــ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المالك، تحقيق أحمد بكير محمود. دار مكتبة الحياة ببيروت دار مكتبة الفكر ــ طرابلس ــ ليبيا (د ت).
٧ ــ المعتمد بن عباد، ديوان شعره، بتحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، وحامد عبدالمجيد. القاهرة ١٩٥١م.
٨ ــ أبو عبدالله الحميدي الروض المعطار في خبر الأقطار، بتحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٧٥م.
٩ ــ ابن داود الظاهري، الزهرة جـ١، تحقيق لويس نيكل وإبراهيم طوقان بيروت ١٩٣٢م.
١٠ ــ ابن سعيد الأندلسي: عنوان المرقصات والمطربات، تحقيق عبد القادر حداد. الجزائر ١٩٤٩م.
١١ ــ الدكتور حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة ٩٥٩م.
١٢ ــ ابن حيان الأندلسي، المقتبس، بتحقيق الدكتور محمود علي مكي. (القاهرة ١٩٧١م) وقطعة أخرى من المقتبس بتحقيق الدكتور عبدالرحمن الحجي، (بيروت ١٩٦٥م).
١٣ ــ الحميدي، جذوة المقتبس، بتحقيق محمد بن تاويت الطنجي ــ القاهرة ١٩٥٢م.
١٤ ــ ابن الأبار، الحلة السيراء (١ ــ ٢) بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ــ القاهرة ١٩٦٣م.
١٥ ــ ابن خفاجة الأندلسي، ديوان شعره، بتحقيق الدكتور السيد غازي ــ الاسكندرية ١٩٦٠م..

• • •